الفصل الثاني

سنوات التكوين

غني عن القول، والأفضل أن يصرح المرء، إن تأثير سنوات التكوين الأولى تلعب دوراً مهماً في تكوين الحياة. هناك ثلاثة جذور متداخلة تعتمد على بعضها ساعدت في صياغة مسيرة درَكَر العلمية، هي تأثير معلمتين في المدرسة الابتدائية، والجو الفكري الذي ساد مدينة فيينا Vienna في فترة مابعد الحرب العالمية الأولى والانجذاب القوي نحو الآداب الكلاسيكية والعلوم الإنسانية[1]. ومن الطبيعي أن يؤدي استرجاع هذه العوامل الثلاثة إلى معنى للتأثيرات. ولكننا عند العودة إلى الوراء نرى أن الأول ساهم في خلق عادات عمل حميدة ومهارات كتابية، والثاني ساعد على تطوير ذكاء براغماتي قاد درَكَر إلى أن يمزج المفاهيم بالحقيقة والثالث رسَّخ أساساً لتفكيره التاريخي وصولاً إلى نمط لرؤية شمولية أعظم شأناً من رؤية مجموعة من الأجزاء.

تباشير التعليم

لم يكن درَكَر مغتراً بتعليمه الرسمي الذي اعتبره أمراً لا مفر منه مليئاً

1. ب. ف. درَكَر، مغامرات متفرج (نيويورك: هاربركولينز، 1978؛ طبعة ثانية، نيويورك: هاربركولينز، 1991) ص 9 ـ 82 (تعود أرقام المقتطفات إلى الطبعة الأصلية).

obeikandl.com

بالبلادة والضجر، ووصف مَقته له بعبارات مستوحاة من ديكنز بـ: «لم يكن تعليماً عالياً (أو أي نوع من التعليم)، ذاك الذي أمضيت فيه ثمانية أعوام في مدرسة نمساوية أتعلمُ الأفعال الشاذة اللاتينية. لم تكن ثمة محاولة لربط هذه الدراسة بأية لغة حيّة أو مندثرة، ولا بالأدب والثقافة والتاريخ، ولا تكاد تمر إشارة عن المعلمين الذين يمكن أن يكون قد قرأ عليهم كمؤلفات هوريس Horace وتاسيتوس Tacitus إلا من أجل العثور على غلطة في القواعد... لعل اللغة اللاتينية تنتمي إلى تعليم أعلى ولكن تعليمها يجب ألا يكون على شكل تمارين استظهار تلقائي حتى تكون ثقافة من أي نوع»[2].

ترافق اغتراره بمعلميه مع استثناءين، فقد أسعده الحظ بمعلمتين كبيرتين في المدرسة الابتدائية حيث تأثر بكل من هاتين الأستاذتين العانستين بطرق مختلفة وبصورة عميقة. كانت أولاهما صارمة في أصول التعليم أوصلت إليه المهارات الأولية في الكتابة وأصرّت على أن يحوِّل الإمكانية الكامنة إلى أداء، وكانت الثانية امرأة محبوبة أنيسة تجاهلت التركيز التقليدي على المهارات الروتينية وقوة التدريبات المدرسية وألهمته من خلال قوة شخصيتها المجَرّدة أن يسير في طريق الإبداع والتفكير الذهني. لقد فرضت عليه الأستاذة المُتقنة بعمق لواجباتها الحاجةَ إلى التدرب المستمر والمستويات العالية من الأداء في الكتابة، في حين تناولت الأستاذة ذات الشخصية القيادية الجانب الإبداعي والإدراكي من طبيعته. وفي سنواته التاليات أقرّ درَكَر بالفضل الهائل لتضافر مواهب تلكُمُ الأستاذتين في تعليمه حَرفة الكتابة الواضحة البليغة وفي غرس أهمية الأناقة في التعبير عن مدركاته»[3].

تأثيرات خارجية

أصبح درَكَر ـ بعد أن تبين له أن التدريب الأكاديمي لايُطاق وأن الطرق

2. ب. ف. درَكَر: معالم على طريق الغد (نيويورك: هاربركولينز، 1959)، ص 147 ـ 148.
3. درَكَر، مغامرات متفرج، ص 62 ـ 82.

المعيارية تقف حجر عثرة أمام التعليم كما يقول ـ مثالاً حياً عن تلميذ لامبالٍ فاتر الهمة قليل الدراسة أقل تعلماً ولكنه موهوب في تحقيق أفضل النتائج في الامتحانات. ولم يكن أمامه من خيار إلا أن يجتاز الحركات التي اعتبر أنها الجو الخانق الجائر السائد في تدريب المدرسة الثانوية، ولكنه وجد تحدياته التعليمية خارج نطاق الصف المدرسي. تمثلَ الحافز الكبير لفضوله الفكري في أبويه ذوي الثقافة العالية، ولكن نفس الأهمية كانت في أن تفتّح شهيته الفكرية يعود إلى الاختلاط بمجموعة أصدقاء أسرته التي كانت تضم بعضاً من كبار المهنيين ومشاعل الفكر في فيينا Vienna.

أدت هذه الاتصالات كما وصفها درَكَر في كتاب ـ مغامرات متفرج Adventures of a Bystander ـ إلى تطوير ذكائه العملي إذ أتاحت له الفرصة لكي يرى كيف تمكن هؤلاء المهنين من جعل معرفتهم يُعتمَد عليها. وسواء كانوا موسيقيين أو أطباء أو محامين أو فنانين أو خبراء في مجالات أخرى، فقد ركزوا جميعاً على الأداء والنتائج. هذا التعليم متنوعُ الأعراق غير الرسمي زرع فيه بصورة لاشعورية بذور البراغماتية الملهَمة التي كان مآلها الازدهار والتفتح في قابل الأيام. كذلك فإن درَكَر الشاب تعلم من خلال أحاديثه التي تبادلها مع ناصحيه دروساً يستحيل أن تُستقى من بطون كتب التعليم التقليدية، حيث جمع على سبيل المثال طلائع الأدب ودماثة الخلق وكوَّن أساساً للمحبة والثقة وأنشأ فطنة نفاذة ودعابة قوية.

يضاف إلى ذلك أن درَكَر في سني مراهقته دُعِي إلى عدة صالونات فكرية في فيينا كانت في معظمها ندوات أدبية ترفيهية، وكان يعامل خلالها كرجل شاب، ذلك أن القائمين عليها لم يفرقوا في المعاملة بين كبار الضيوف وصغارهم، فالمتطلبات الوحيدة لهذه اللقاءات هي المساهمة في التعلّم واحترامه، وكانت تقدَّم فيها أبحاث عن المشاكل الاجتماعية والشؤون المعاصرة فتناقش وتنتقد بصورة موضوعية. تعلم درَكَر من هذه الحلقات تحديد المشكلة وأساسيات البحث، والأهم من كل ذلك أنه «تعلم كيف

يتعلم». عندما بلغ درَكَر العشرين قدَّم أولى مقالاته التي كانت دراسة إحصائية عن تأثير قناة بنما Panama الاقتصادي على التجارة العالمية، وبيّن أنه يمتلك ـ وهو في مثل هذا السن المبكرة ـ القدرات الإدراكية المطلوبة والحافز الشخصي على إنجاز عمل أصلي[4].

دراسة العلوم الإنسانية

كُتِب الكثير في الآونة الأخيرة عن تدهور العلوم الإنسانية في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، فالتخصصات المهنية ولاسيما دراسة إدارة الأعمال دفعت بالآداب إلى موقع ثانوي. وعلى الرغم من أن درَكَر ساعد في رفع سوية الإدارة إلى مصاف التخصصات المهنية المحترمة إلا أنه لم يتخلَّ أبداً عن اعتباره الآداب جوهر العملية الإدارية وروحها. لقد أقنعه ارتياده الآداب الكلاسيكية دون معلم في شبابه أن الإدارة دون أدب تتحول إلى موضوع بلا دم فاقد للروح، فحبَك خيوط العلوم الإنسانية في نسيج عملية إدارة الأعمال من خلال استخدامه لأمثلة وعِبَرٍ لاحصر لها في كتاباته كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

حقق درَكَر درجات مُرضية في مدرسته براً بوالديه، ولكن منبع تعليمه الأكاديمي كان دراسته الذاتية، فذوقه الأدبي وإحساسه التاريخي دفعاه بقوة ليتخذ من قراءة الكتب الجادة جزءاً مهماً من حياته اليومية، واقتنع من خلال اهتمامه بالآداب أن الإدارة هي أدب لأنها تتعامل مع معارف المفاهيم والنظريات، وأنها فنّ لأنها تركز على النتائج التي لاتتحقق إلا بالمهارات الإنسانية .

ساهم اهتمامه بالآداب الكلاسيكية والعلوم الإنسانية في سلسلة اهتماماته الكبرى وتفكيره الشمولي، فكانت جميعها أسس تبَحُّره بالإدارة في المستقبل.

4. درَكَر، مغامرات متفرج، ص 24 ـ 61.

وهذا التدريب الذاتي في مجال الآداب هو الذي شكل جوهر معتقداته ومواقفه الفكرية ودعَم تصديه الفلسفي لتفسير الطيف العريض من الشؤون الاجتماعية، علاوة على أن دراسة العلوم الإنسانية جعلته يتفادى الغرور الذي ينشأ حين يفسح المرء للبدع ووسائل التحايل مجالاً لخلق توقعات زائفة.

استهوى درَكَر على وجه الخصوص مؤلفون استطاعوا أن يحوِّلوا أبحاثهم إلى أشكال علمية، وكان من بين الرموز الذين أثروا بشكل مباشر في تفكيره الشمولي بيرنارد دي جوفينال Bernard de Jouvenal وسورين كييركيغارد Soren Kierkegaard وفيرديناند تونيز Ferdinand Toennies وجورج سيميل George Simmel وهنري آدامز Henry Adams وجون ر. كومونز John R. Commons وتورشتاين فيبلن Thorstein Veblen وأخيراً وولتر بيجهوت Walter Bagehot.[5]

إن طلائع مقدرة درَكَر على الإجادة في حرفة المهارات التعليمية الأساسية وذكائه البراغماتي وَحبّه للعلوم الإنسانية تعتمد في ترجمتها إلى معرفة ذات صلة بالموضوع على فرص خفية مخبوءة له في مجال الإدارة. ومع ذلك فلولا زرع هذه البذور وتعهدها المستمر في شبابه لما أنتج الفلسفة العضوية والإلهام الفكري الذين ميزا سنوات حياته التالية.

البحث عن مسيرة مهنية

واجه درَكَر في مطلع شبابه المشكلة التقليدية في التحضير لمهنة يمتهنها، وهذا في حالة كحالته برهان على أن شيئاً لم يكن غير متوقع كمسيرة الحياة الإنسانية. كان من دواعي سرور أبويه أن يختار بعد تخرجه من المدرسة الثانوية إحدى التخصصات الجامعية التقليدية (الحقوق أو النظرية

5. ب. ف درَكَر، الرؤية البيئية: تأملات في الحالة الأمريكية (نيو برونسويك، نيوجيرسي: ترانسأكشن، 1993)، ص 441 ـ 442.

السياسية أو علم الاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ) التي كان كل منها مناسباً لمواهبه.

إلا أن درَكَر وجد أن اجتياز امتحان الدخول إلى جامعة فيينا أمر غير مقبول لأسباب ثلاثة، أولها أن النمسا في فترة مابعد الحرب العالمية الأولى غير قادرة على التوافق مع الحداثة، فالمدينة غارقة في الماضي وَالجوّ يُذكره بالضباب الذي يلف كل شيء ويشلّ كل شيء ويجمد الخيال ويخنق التفكير، وقد أدرك حتى في طفولته أن عليه أن يبحث عن تغيير في المشاهد. وثانيها أن الدوام الكامل في الجامعة ليس إلا امتداد للمراهقة، وقد شرح فيما بعد بأن النظرة إلى المؤهلات الجامعية كانت في تلك الأيام ـ خلافاً لما هي عليه نظرة العالم اليوم ـ هي أنها مناسبة ومقبولة للانخراط في العمل في عمر مبكر: «عندما قررت عام ست وعشرين وتسعمائة وألف ألا ألتحق بعد إنهاء الدراسة الثانوية بالجامعة بل بالعمل، كان والدي منزعجاً تماماً، ذلك أن أسرتنا كانت لفترة طويلة تزخر بالمحامين والأطباء. ولكنه لم يطلق عليّ كلمة [متسرب من التعليم] ولم يحاول أن يثنيني عن رأيي، كما لم يتنبأ بأني لن أكون قادراً على أي شيء. كنت شاباً مسؤولاً وأريد أن أعمل كرجل»[6].

وثالثها أن اهتمامات درَكَر الفكرية المتنوعة قد منعته بصورة مزاجية من الالتزام المهني بتخصص معين. لقد عبَّر كتّاب عديدون عن أن سمعة درَكَر كمرجع في الإدارة مالت إلى أن تطغى على بريق كتاباته في السياسة وتاريخ الاقتصاد وعلم الاجتماع والفلسفة.

ظلت فكرة التمسك بمهنة واحدة لغزاً لدرَكَر طوال حياته، فقد تحدى العناوين المهنية، وصنفه مراجعو الكتب بين حين وآخر على أنه صحفي، وعالم سياسي، واقتصادي، وإحصائي، ومؤرخ، وفيلسوف، وناقد فني،

6. ب. ف. درَكَر، مجتمع مابعد الرأسمالي (نيويورك: هاربركولينز، 1993)، ص 40.

ومعلم، وممتشار في الأعمال. وفي إحدى المناسبات أجاب على سؤال لأحد المراسلين عن مجال تخصصه الحقيقي بقوله: «ها أنا ذا في الثامنة والخمسين ومازلت أجهل ما سأفعله عندما أكبر»[7]. كانت ملاحظته هذه أقل من أن تشير إلى مهنة، واعتمدت في حالة درَكَر على حادثة وظروف غير متوقعة أكثر من كونها تعليقاً على الحاجة إلى التعلم المستمر من أجل الاستعداد لفرص جديدة.

عام 1926 وبعد أن سقطت الجامعة من الحسبان وكان اختيار المسلك المعاشي غامضاً، أدرك درَكَر حينها أن عليه البحث عن وظيفة توفر له الخبرة وفرصة التحسّن والنمو الشخصي. وعليه فقد ترك مدينة فيينا في السابعة عشرة من عمره والتحق بمسعى من أبيه بوظيفة متدرب في أحدى بيوتات هامبورغ Hamburg التجارية.

تمكن درَكَر بفضل هذا العمل الوظيفي من الدخول إلى عالم الرجال وتعلُّم أوليات ممارسة العمل. كان موقعه التالي عام 1928 محللاً للضمانات في مصرف صغير بفرانكفورت Frankfurt. وبعد الرعب المالي الذي ساد عام 1929 سُرِّح من العمل على خلفية سياسة أن آخر المعينين يُفصَلون أولاً. غير أنه كان محظوظاً فوجد بسرعة وظيفة كاتب مالي في صحيفة إقليمية رئيسية هي مجلة فرانكفورت العامة Frankfurter General Anzeiger، واعترافاً بمواهبه في الكتابة قام الناشر بترقيته إلى محرر رئيسي مسؤول عن أخبار الأعمال والأخبار الأجنبية في وقت واحد. لم تتوسع معارفه بالوقائع الاجتماعية والاقتصادية بفضل خبرته في التحرير بين عامي 1929 و1933 فحسب، بل إنها وفرت له في الوقت ذاته فرصة للدخول إلى ردهات التعليم العالي.

7. «المهنة تتغير حسب الأعمار من العشرين إلى السبعين» مجلة علم النفس اليوم (تشرين الثاني ـ كانون الأول 1992) ص 54.

الإنجازات الأكاديمية

بعد أن ترك درَكَر المدرسة الثانوية، أصر كثيراً ـ كما ذكرنا سابقاً ـ على أن تمضية أربع سنوات في الكلية مضيعة للوقت لعدم علاقتها بالتعلم الحقيقي. ولكن كراهيته للعلم المقيَّد بنظام صارم لم تجد لها تأثيراً حينما سنحت له الفرصة لتحمّل مسؤولية تطوره الفكري الذاتي من خلال الالتحاق ببرنامج حقوقي في جامعة فرانكفورت Frankfurt.

تمكن درَكَر من متابعة وظيفته في التحرير مع هذا البرنامج أثناء تحصيله الشهادة العالية، وقد كان مناسباً له على وجه الخصوص لأنه وفر قدراً كبيراً من الاستقلالية لطالب يرغب في تفصيل مجرى عمله بالطريقة التي تناسب احتياجاته ورغباته. وفي الحقيقة فإن الثقافة والتركيبة والمحتوى في التعليم الحقوقي الأوروبي تختلف بشكل جوهري عن النمط الأمريكي في وجوه عديدة، أولها أن هدف النظام الألماني الرئيسي هو تدريب الموظف المدني أكثر منه إعداد الممتهنين بممارسة الحقوق بشكل رسمي.

وثانيها، وهو نتيجة للأول، أن منهاج البرنامج الألماني أكثر مرونة بكثير، إذ أنه يمْكِن على سبيل المثال لطالب بدوام كامل ألا يأخذ أحد المواضيع المقررة أو يحضُر محاضرات إجبارية أو يتقدم إلى امتحانات فصلية أو يحضِّر مقررات كتابية دوريَّة، والمطلب الأساس الوحيد للحصول على الإجازة الجامعية هو النجاح في الامتحان النهائي عند انتهاء البرنامج. التأهل للامتحان النهائي يشتمل على عدد من التفاصيل الإجرائية مثل دفع رسم مالي صغير والتسجيل لعدد معيّن من المقررات والمحافظة على التأهيل الجامعي فترة مقدارها ثماني فصول دراسية. غير أن الدراسة والتحضير للامتحان أمر يخص الطالب وحده.

وثالثها ـ وهو الأهم بالنسبة لدرَكَر ـ هو إمكانية المرشح للإجازة الجامعية بدوام كامل أن يعمل بوظيفة ذات دوام كامل، وقد كان هذا المزج

بين خبرة العمل ومتابعة إجازة جامعية متقدمة هو السبيل الذي اتخذه كثير من أصدقائه وأقربائه، فوالده وعم زوجته (هانس كيلسن Hans Kelsen أحد كبار فلاسفة السياسة في العالم) اختارا عملاً بدوام كامل أثناء متابعة تحصيلهما الجامعي في الحقوق. إن الربط بين العمل والدراسة ترك أثراً لايمحى على درَكَر الذي اعترف في وقت لاحق بفضل طلاب الدوام الجزئي الذين يعملون بوظيفة ذات دوام كامل وذلك أثناء ممارسته مهنة التعليم، وشعر أنهم يُحضِرون معهم إلى قاعة الدرس نضجاً والتزاماً في تمَثل المفاهيم النظرية لم يكونا موجودين عند طلاب الدوام الكامل الشباب الذين لا يتمتعون بالخبرة.

ورابعها، وبما أن درَكَر لم يكن مواطناً ألمانياً فلم يكن بمقدوره أن يتقدم لفحص القانون، وكان عليه أن يتابع دراسته حتى شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية ويكتب أطروحة عن النشوء التاريخي والفلسفي للقانون الدولي. نال الدكتوراه عام 1931 عندما لم يكن قد أنهى الثانية والعشرين من عمره. ألح عليه أستاذه أن يصبح أستاذاً مساعداً في الجامعة ـ وهذا منصب يعادل مثيله في الجامعات الأمريكية ـ رغم أن المنصب كان غير مأجور. تم في الواقع قبول أطروحة درَكَر للتعيين بالوظيفة من قبل الهيئة التدريسية ولكنه تأخر في قبول التعيين. وبما أن الأستاذ المساعد موظفٌ حكومي فإنه يصبح بصورة تلقائية مواطناً ألمانياً. في أوائل عام 1932 كان درَكَر قد توقع وصول هتلر للسلطة ولم تكن لديه رغبة في أن يصبح من رعاياه[8].

من الفوائد المتممة للالتحاق بجامعة ألمانية حق الطالب المسجل في تفَقّد الصفوف الدراسية وحضور المحاضرات الجامعية. وجد درَكَر في هذا المدخل غير الرسمي إلى التعليم الوجه الأكثر تحدياً وإثارة في الحياة الأكاديمية وقابل فيه بعض أكثر العقول احتراماً ومهابة في عالم العلم، ومنهم يوجين ألتشول Eugene Altchul في علم الإحصاء والطرق الكمية، وريتشارد

8. مراسلة مع المؤلف (28 تشرين الأول 1995).

فيلهيلم Richard Wilhelm في الدراسات الشرقية، وفرانس أوبنهايمر Franz Oppenheimer في علم الاجتماع، وإيرنيست كانتوروفيتز Ernest Kantorowicz في تاريخ العصور الوسطى، ومارتن بوبر Martin Buber في الفلسفة واللاهوت.

يتمتع كل واحد من هؤلاء العلماء المتميزين بشهرة عالمية بسبب علمهم، وهم أسماء معروفة حتى في هذا اليوم باختصاصاتهم، وهم ـ على سبيل التشبُّه بالرياضة ـ يمثلون فريق هيئة تدريسية كان لها مجتمعة أثر كبير على درَكَر ودفعت بفضوله ورعت تفكيره متعدد الاختصاصات الذي طبقه فيما بعد في الإدارة وفي المجالات الأخرى، وهو الذي لم يكن بالطبع لكلمة الإدارة معنى كبيراً لديه في أواخر عشرينيات ومطلع ثلاثينيات القرن العشرين، ومن قبيل الاسترجاع الزمني إلى حدٍّ كبير أن نرى فوائد هذا التعليم غير الرسمي التي قدِّرَ أن يكون لها أثر حقيقي ذو شأن[9].

أثر فريدريك يوليوس شتال

الركود الاقتصادي العالمي الذي حلَّ في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين وبروز هتلر غيَّرا من ظروف درَكَر بشكل دراماتيكي، فقد فكَّر بالانتقال إلى مجتمع يقدر الحرية بعد أن رأى أن الاستئثار بالحكم أمر لايمكن السكوت عنه. كانت الحادثة التي أثرت بشكل مباشر على قراره بالنزوح هي نشره رسالة علمية مثيرة للجدل عن فريدريك يوليوس شتال (1802 ـ 1863) وهو يهودي صابئ وسياسي لامع خلَفَ جورج هيغل Georg Hegle في منصب أستاذ الفلسفة بجامعة برلين Berlin.

كان درَكَر ينوي طرح شتال للمناقشة في محاضرته الافتتاحية إذا أصبح أستاذاً مساعداً كامل الأهلية، واختاره موضوعاً للبحث لأنه رأى في فلسفته

9. مراسلة مع المؤلف (28 تشرين الأول 1995).

العديد من العناصر التي تشكل بديلاً معقولاً للقومية الرجعية النازية ولِوَعد الشيوعية بالسعادة المطلقة الدنيوية. كذلك فإن تفسير شتال للتاريخ وقع في نفس درَكَر موقعاً حسناً لأنه رفض حتمية ماركس Marx وهيغل Hegel الإيديولوجية وهما إيقونتا الفلسفة في ألمانيا مابين الحربين. لقد كان يرى أن التاريخ تفاعلٌ متبادلٌ بين الاستمرارية والتغيّر، وأنه يولِد توتراً واضطراباً ولكنه يقدم أيضاً لرجل الدولة الداهية وصاحب الفكر فرصاً للتحدي. كان مبدأ المحافظة لدى شتال يدعو في جوهره إلى الحفاظ على قوة المجتمع التقليدي والاعتراف في نفس الوقت بديناميكيات ومعاني التعديل إلى ظروف جديدة.

كان شتال ثابتاً على غير بينة في معارضته للجوهريات المجردة كوسيلة لمعالجة المشاكل الاقتصادية والسياسية القائمة. إن التمييز بين الإبداع الذي نتمناه والحقيقة يعني «أن علينا أن نحفظ في تفكيرنا ليس مايجب أن يحدث فحسب بل الذي سوف يحدث أيضاً »[10] كما يقول. وفي رأيه أن أكثر حاجات عهد ما بعد نابليون إلحاحاً كانت صيانة استمرارية الملكية واستقرارها على ضوء التغيرات الراديكالية التي لايمكن الرجوع عنها والتي أفرزتها الثورة الفرنسية، وأن هناك عناصر من الحقيقة في كل من السلطة الدينية واللِّبرالية الدستورية، ولكن وجودهما منفصلتين يجعلهما مجدبتين ومدمِّرتين. وفي المقابل فإن الانسجام السياسي كان ممكناً من خلال الجمع بين العناصر في تركيبة تعرف باسم الملكية الدستورية. وكجزء من هذا الجمع فإن شتال يصر على أن على البنية التحتية المؤسساتية (التاج والكنيسة والجيش والجامعات والمدن والنبلاء) أن تجدد شبابها من خلال جعل قوتها أكثر شرعية ومسؤولية.

10. ج. ج. شيهان، التاريخ الألماني 1770 ـ 1866 (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد، 1989)، ص 594 . ■

يقول شتال في تأييد صيغة من التوحد السياسي يمتزج فيها النظام الملكي بالمؤسسات المتمثلة، «يجب على الأمير أن يعير انتباهاً للطبقات الثلاث: النبلاء ورجال الدين والعامّة تماماً كما يجب عليهم أن يعيروه انتباههم، فهم مركزين مختلفين للسلطة»[11]. في جوهر مبدأ المحافظة لدى شتال يوجد دور مركزي للدين، فإيديولوجيات اللبرالية والاشتراكية عقيمة وضحلة في معزل عن نظرة عالمية مسيحية. وفي نهاية المطاف كان الولاء للقيم الروحية هو الذي وطَّد العلاقة فيما بين الملكية الوراثية ومؤسسات المجتمع الجديدة. يرى درَكَر أن شتال يُذكَر اليوم على أنه سياسي أو فيلسوف سياسي أقل مما يذكر كشخص عدَّل اللاهوت البروتستانتي المحتضَر الذي ساد في القرن التاسع عشر.

كذلك فإن درَكَر رأى دراسته لشتال كفصل من كتاب محتمل عن الاستمرارية والتغيّر يدور حول فكرة دولة الرايخ في القرن التاسع عشر، وقد أراد على وجه الخصوص أن يركِّز على ميرات فيلهيلم فون هومبولت Wilhelm Humbolt (1767 - 1865) وَجوزيف فون رادوفيتس Joseph von Radowitz (1797 - 1835)، حيث كان الأول رجل دولة بروتستانتي يعتقد بأن وجود الرب وطبيعته وأصل الكون أمور لاسبيل إلى معرفتها، والثاني جنرال كاثوليكي في الجيش وسياسي لامع وصحفي نشيط، وهما مثل شتال يتصارعان مع الثورة الفرنسية في محاولة لتخفيف التوتر بين الاستمرارية والتغيّر، وكل منهما أدرك استحالة إرجاع عقارب التاريخ إلى الوراء واستحالة التحكم في الكون أيضاً من خلال الخلاص العلماني. كان يحدوهم الأمل في تجنب التطرف السياسي وَوضع توازن بين اللبرالية الفجَّة والحركة المحافِظة التواقة إلى الماضي. وبما أن النازية قطعت كل استمرارية فقد تم التخلي عن المشروع ولم يكتمِل أول كتب درَكَر الكثيرة.

11. شيهان، التاريخ الألماني، ص 595.

لا يمكن حصر مفاهيم شتال السياسية التي امتدت يد درَكَر إليها، ولكن يمكن الاستدلال على أن العديد من أفكاره السياسية قد تعززت من خلال دراسته لشتال. ومن المبادئ التي يمكن تحديدها كجزء من فلسفته السياسية وفلسفته حول الشركات هي الدور الهام لعدم تواصل مسيرة الاستمرارية والتغيّر، والشكوك حول الخلاص الاجتماعي من خلال أمور مطلقة من صنع الإنسان، ورفض الحتمية التاريخية وقبول القيم الروحية كمطلب أساسي لمجتمع منسجم والإيمان بأن السلطة تحتاج إلى أن تكون مسؤولة وذات مسؤولية. لقد زرعت مبادئ شتال في درَكَر بذرة الهوية الشخصية السياسية كمحافظ مجدِّد.

قبِلَ أكبر ناشر في البلاد في اختصاص النظرية السياسية أن ينشر الدراسة التي أعدّها درَكَر حول شتال، وهذا تكريم نادر لأن السياسة المألوفة كانت الاحتفاظ بهذا النشر لصالح كبار أعضاء الهيئات التدريسية الجامعية، ومما زاد من فرح درَكَر أن الناشر اختار هذا الكتاب الصغير ليحمل الرقم مائة في أكثر سلاسل ألمانيا تميُّزاً في علم السياسة ويُكرس طبعه الذكرى المئوية لإنشاء الدار. ومع ذلك ولأن درَكَر بيَّن بشدة أن ألمانيا النازية فشلت في تحقيق معايير الشرعية السياسية فقد مُنِع الكتاب من قبل الحكومة بصورة مفاجئة، ولم تنج إلا نسخة واحدة إلى جانب نسخة درَكَر الشخصية وُضعت في مخابئ مكتبة إحدى الجامعات الألمانية[12]. ونظراً لاقتناعه بأن بقاءه في ألمانيا يشكل خطراً على حياته ويخالف ضميره، فقد غادرها عام 1933 إلى انكلترا ليحتل منصب كبير الأمناء في مصرف تجاري صغير.

لم يتعلم درَكَر خلال تسلمه هذا المنصب في المصرف اللندني أساسيات الأعمال المصرفية فحسب، بل كوَّن فهماً أكثر وضوحاً لأنشطة زبائن المصرف المالية، وعلى الأخص في مجال عمليات الاندماج والإستحواذ، ولكنه ترك

12. مراسلة مع المؤلف (7 تشرين الأول 1998).

المصرف عام 1936 على الرغم من أنه أصبح شريكاً فيه، فالعمل المصرفي ـ رغم مايقدم من مزايا وفوائد مالية ـ لم يشف غليل تطلعاته إلى مسيرة مهنية مليئة بالتحدي والإثارة ولم يُشبع تعطشه للإبداع الفكري.

شُغِف درَكَر أثناء إقامته في انكلترا بمجال بعيد تماماً عن أنشطته المتعلقة بالأعمال، هو الفن الياباني الذي كان له به التزاماً فكرياً وكان مدعاة لاتجاه جمالي جديد منفرد، حيث لعبت الصدفة وحدها ـ كما في كثير من شؤون حياته ـ دوراً باختيار تخصصه غير التقليدي. ساقته قدماه أثناء عاصفة مطر لندنية عام 1934 إلى الاحتماء بمعرض للفن الياباني فكان أن تعلق بهذا الفن طوال حياته، وحظي بعدئذ بالاعتراف بخبرته النقدية وبلغ موقع الجامع المتميز لرسوم القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر.

الرحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية

كان العام 1937 قطب الرَّحى في حياة درَكَر لأسباب شخصية ومهنية على حد سواء، كان أولها زواجه من دوريس شميتس Doris Schmitz التي أصبحت أم أولاده الأربعة، وسنداً شخصياً له واحتلت مقام المستشار الأول لديه طوال فترة زادت عن ستين سنة (وبمناسبة هذه العلاقة فقد نوَّه بأنه اتخذ في حياته قرارين عظيمين، عدم الالتحاق بالجامعة على أساس دوام كامل لأنه شعر أن ذلك مضيعة للوقت ولا يساهم بشيء في نموِّه، وَرفضه أول كلمة كلا من زوجته المقبلة)[13]. وبعد ذلك قرر القبول بمنصب مراسل غير ملتزم لعدد من الصحف البريطانية وكتابة مقالات في الشؤون الاقتصادية والاتجاهات السياسية والقوى الاجتماعية ووضع التعليم العالي في الولايات المتحدة. ونتيجة لهذا القرار اختار أن يتخذ من الولايات المتحدة موطناً دائماً له وأن يصبح من مواطنيها.

13. م. ل. بولاك، «يجب أن تكون الأعمال مضجرة،» مجلة فيلاديلفيا إنكويرَر (30 آب 1987) ص 9.

لم يواجه درَكَر ـ بفضل فضوله الولادي وشخصيته الاجتماعية ونزعته الطبيعية إلى التعلم ـ صعوبة كبيرة في التكيف مع هذه المرحلة الجديدة من مسيرته الصحفية التي شحذت مهاراته في الكتابة وجعلت منه كاتب مقالات موهوب. كذلك فإن كتابة التقارير والتحليلات كشفت النقاب عن قوته الغيبية في تحديد المذاهب الاقتصادية والظواهر الاجتماعية. لقد تبدَّت هذه الموهبة في تحديد الأعراض ـ التي مكنته من استشراق وتفسير وتقييم أمور معقدة ومن ثم تبسيطها لقراء عامة الناس ـ في أخباره ومقالاته بصحيفة وول ستريت Wall Street، وفي أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من عمره حملته مهماته الصحفية في طول البلاد وعرضها ومكنته من مقابلة ـ أو العمل مع ـ مشاهير مثل هنري لوس Henry Luce وجون ل. لويس John L. Lewis وهنري وولس Henry Wallace وهاري هوبكنز Harry Hopkins وهيربيرت آغار Herbert Agar وبَكمينستر فوللر Buckminster Fuller ومارشال ماك لوهان Marshall McLuhan، وهؤلاء غيض من فيض.

ومع ذلك فإن اختيار مهنة دائمة ظل عذاباً محيراً يدنو إلى متناول اليد ثم يتفلت منها. لقد أصبح من الواضح من خلال اهتمامات درَكَر متعددة الوجوه وحماسه اللامحدود أن الالتزام بمهنة واحدة غير مناسب له، كذلك بدا أنه لا مفرَّ من أن يكون للتعليم مكان في خِضمِّ مسالكه المعاشية، فالتعليم لا يلبي حاجته إلى التواصل الإنساني فحسب بل يوفر له جمهوراً يمكن أن يختبر من خلالهم أفكاره العديدة أيضاً، فجاء تعيينه كعضو ملحق بالهيئة التدريسية في كلية سارة لورنس Sarah Lawrence عام 1939 لمساعدته على تلبية هذه الحاجة العاطفية، وظل يمارس التعليم بصورة مستمرة حتى اليوم حيث يشغل وظائف ذات دوام كامل في كلية بينينغتون Bennington وجامعة نيويورك وكلية كليرمونت Claremont، باستثناء بعض الأوقات التي يعرض له بحث مُلزِم أو استشارة حكومية.

استناداً إلى البديهية في أن التعليم يمثل ضعفي التعلم، فإن الفصل

الدراسي يعتبر في نظر دَرَكَر مناسبة لاستكشاف مزيد من عمق اهتماماته الفكرية المتنوعة، وهو الذي قام خلال السنوات بتعليم سلسلة واسعة من المواضيع اشتملت على العلوم الاقتصادية وعلم الأخلاق والنظرية السياسية والفلسفة والأدب وعلم الاجتماع والتاريخ والفن الياباني والإحصاء والشؤون الدولية. ورغم أن البعض صنفه مُجرَّد هاوٍ، إلا أن علمه ومقالاته المثيرة في هذه الميادين المختلفة برهان على كفاءته في البحث والمعرفة المترافقة مع مجموعة أفكاره الحالية في الأدب المقروء والمفهوم.

تسود الأوساط الأكاديمية بعض السخرية حول فهم دَرَكَر، ذلك أن بعض الناس يعتبرونه صحفياً على الرغم من تميزه الذي يقرّ به الجميع كمؤسس للتخصص الحديث في الإدارة، والحصيلة العلمية الهائلة التي أنجزها على امتداد عدة عقود، وعروض الوظائف التعليمية التي تنهال عليه من جامعات متميزة مثل هارفرد Harvard ويال Yale وبرينستون Princeton وستانفورد Stanford. ولعل من المفهوم في أجواء التخصص العالي جداً أن يحظى بهذه النظرة من قبل أناس في العلوم الإنسانية وأشخاص في تخصصات غير الإدارة في كليات إدارة الأعمال، ولكن أمراً لا يُغتفر هو أن تعتبره مجموعة صغيرة ضمن اختصاص الإدارة صحفياً أكثر منه عالماً محترفاً[14].

لقد كان كل ميدان ارتاده دَرَكَر قبل بلوغه الثلاثين من عمره يمثل مغناطيساً وفَّر له انجذاباً ونمواً، ولكن أياً منها لم يكن بالقوة الكافية بحيث تجعله التزاماً مطلقاً. الواقع أنه جرّب في العشرينيات من عمره ضروباً من المهن الممكنة انعكست في ميوله الفكرية ذات الاختصاصات المتعددة واهتماماته ذات الوجوه المهنية العديدة. وفي نهاية المطاف كان حط الرحال

14. ج. أ. بايرن، «هل البحث عن البرج العاجي [مشوَّش وغير ذي شأن وفيه من الادعاء ما فيه]؟» بيزنيس ويك (29 تشرين الأول 1990)، ص 62.

في مسلك يتناسب مع اهتماماته كعبقرية متعددة الثقافات قد نال درجة من الحقيقة عندما أحدث ثورة في دراسة الإدارة.

بيد أن الوجوه التخصصية المتنوعة لدى درَكَر شكلت في الغالب مثلباً في بحثه عن منصب جامعي دائم في الولايات المتحدة، وعلى الرغم من أنه عَلَّم الفلسفة والنظرية السياسية والتاريخ في سابق أيامه، فإن رؤساء الأقسام الأكاديمية واجهوا صعوبات في إيجاد مكان له ضمن تخصصات معينة في العلوم الاجتماعية، وكذلك فإن درَكَر رفض المنصب الذي عرضه عليه في وقت لاحق عميد كلية إدارة الأعمال في جامعة هارفرد لأنه لم يصل إلى أكثر من تعليم اختصاص فني في إدارة الأعمال. لم يكن التعليم العام في إدارة الأعمال تخصصاً قائماً في ذلك الحين، ولكن درَكَر كان يستخدم دراسة الإدارة نقطة ارتكاز من أجل الْتحام وظيفي وتساؤل اجتماعي: «لم أدرس الإدارة لأنني مهتم بشركة الأعمال ولكن بالمجتمع والجماعة والمؤسسة»[15].

ويبدو، عوداً على بدء، أن نشر أول كتاب رئيس من كتب درَكَر عام 1939 «نهاية الرجل الاقتصادي The End of Economic Man» كان نقطة التحول التي وجهت تفكيره نحو محيط فكرة الإدارة الذي ظل يمخر عبابه منذ أن نشر شراعه في ذلك السبيل.

15. درَكَر، الرؤية البيئية، ص 135.